

جمالية الزمان في الرواية الجزائرية
رواية "مرايا متشظية" لعبد الملك مرتاض نموذجا
براهمي يمينية
جامعة الطاهري محمد بشار
yara08000yara@gmail.com

قبل للنشر في: 2019/12/22

قدم للنشر في: 2019/11/26

الملخص:

تعد رواية "مرايا متشظية" من بين الروايات التي اتجهت نحو قضايا المجتمع، ومشكلاته بالتحليل والنقد، وعالجت ما تزخر به نفوس البشر من نوازع وعواطف، حيث نجد تجدد الصراع الأزلي بين الخير والشر، وعلى الرغم من استفحال الظلام والاعتقال في الروابي على امتداد الرواية إلا أن النور والسلام قد انتصر في نهاية المطاف. ولما كان الزمان من أهم العناصر المشكلة للعمل الروائي فقد اكتفيت في هذه الدراسة عليه، وذلك من خلال الكشف عن دلالاته الفنية، وعن مدى تفاعله مع باقي العناصر المشكلة للبناء الروائي.

الكلمات المفتاحية:

الرواية ; الجمالية ; الزمن ; الماضي الحاضر ; المستقبل.

Abstract :

studies the society and the novel considered as one of most Important novels problem by analysis and criticisms and treat selves of human and its emotions and its conflicts however we find eternal conflicts bet ween evil and good even through the spread of darknen and murdered in the novel. on the expending of novel just the peace and lambency are win at the end .

When the time was Important to form the novel work is enough is this study through discovering its significant and its interaction with other elements that fro; the novel composition.

The keywords: Novel; beauty ; time ; past ; present ;future .

مقدمة:

من المعروف أن البناء الفني لأي عمل سردي يقتضي زمانا إضافة إلى عناصر أخرى، فلا يمكن الفصل بينهما، إذ أن تطور الأحداث مشروط بوجود زمان ومكان في بنية أي نص فلا يمكن بحال من الأحوال الفصل بينهما، اللهم حينما نحاول دراسة كل منهما على إنفراد.

وبما أن الزمان لا يمكن إدراكه حسيا، بل إننا نعانيه من خلال ما أضفاه على الحياة والأشخاص من تغيرات.

1- مفهوم الزمن:

لقد اختلف الدارسون في تعريفه، فهو في التصور الفلسفي لدى أفلاطون: "كل مرحلة تمضي لحدث سابق إلى حدث لاحق"¹ لكنه عند أندري لالاند هو: "متصور على أنه ضرب من الخيط المتحرك الذي يجر الأحداث على مرأى من ملاحظ هو أبدا في مواجهة الحاضر"²

إن الزمان دائم التأثير في الإنسان، الذي هو في صراع مستمر معه منذ القديم، فالزمان كحقيقة مجردة لا يمكن القبض عليه، كما أنه مصدر قلق للإنسان، ولا يظهر إلا من خلال آثاره على الغير.

ف"الزمن مظهر وهمي... فهو كالأكسجين يعايشنا في كل لحظة من حياتنا وفي كل مكان من حركاتنا غير أننا لا نحس به، ولا نستطيع أن نتلمسه، ولا أن نراه. وإنما نتوهم أو نتحقق أننا نراه في غيرنا مجسدا في شيب الإنسان وتجاويد وجهه، وفي سقوط شعره.... فالزمن إذن مظهر نفسي لا مادي، ومجرد لا محسوس"³

لقد كان مفهوم الزمان ولا يزال من الإشكالات العويصة التي تشغل اهتمام الباحثين، ولم يفصل في تحديد مفهومه بعد. ولهذا يؤكد باسكال على أن الزمن من الأشياء التي يستحيل تعريفها بل من العبث محاولة ذلك"⁴

وعلى هذا الأساس فالإنسان بطبعه يتقلب عبر الزمن، بحيث يكون هذا الزمان هو الباعث على هذا التغير، ويكون هو الشاهد عليه «... إنه "الزمان" العدد الذي يسجل سرعة تيار الشعور والطاقة التي تقرر مدى اندفاعه، معها ينشط، يعنف، يثور ومعها يهدأ، يهمد، يموت، إنه نسيج حياتنا الداخلية التي تنساب المياه في مجرى النهر.. وهكذا إيقاع واقعنا النفسي يركض عندما يكون غنيا حافلا فيكر معه الزمان، ويحبو عندما يكون فقيرا مجدبا فيزحف معه الزمان، الذي هو حبل يتجاذب به الحزن والفرح. القلب البشري، والذي يتلاعب بالنفس كما تتلاعب أصابع العازف بأوتار الكمان....⁵»

¹ _ عبد الملك مرتاض: نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ص 200، نقلا عن:

Platon, Timée in André Lalande : op, cit

² _ المصدر نفسه: نقلا عن المصدر نفسه، ص 201.

³ _ عبد الملك مرتاض: نظرية الرواية، ص 201.

⁴ _ عبد الملك مرتاض: الميثولوجية عند العرب (دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الدار التونسية للنشر، 1989 ص 76 نقلا

عن: Encyclopaedia universalis, (temps)

⁵ _ سمير الحاج شاهين: لحظة الأدبية، دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1980 ص 5.

يتضح لنا أن الزمن عنصر مهم في الفن الروائي، وذلك من خلال مساهمته في تشكيل البنية السردية لهذا الفن، فهو موجود بيننا، لا نراه ولا نلمسه ولكننا نحس به ونشعر به في حياتنا.

2- مستويات الزمن في الرواية الجزائرية:

الزمن هو أحد العناصر الأساسية المشكلة للبناء الروائي كما أنه ليس حياديا مصطنعا، بل هو وجود يؤثر في الكائنات والأشياء. إن الزمن في الرواية كثيرا ما يتمرد على الحدث، ويصبح ومن الحلم، وزمن الإبداع، وبالتالي يتخلى عن خطيئته المعهودة، ويفقد تسلسله الزمني، ليعمد الكاتب إلى اللعب بأوتاره، وتحركها كيفما يشاء.

تتعدد الأزمنة في رواية "مرايا متشظية" يمكن تقسيمها إلى:

أ- **الزمن الأسطوري:** "سرد قصصي مشوه للأحداث التاريخية، تعتمد إلى المخيلة الشعبية، فتبتدع الحكايات الدينية، والقومية، والفلسفية لتثير بها انتباه الجمهور. والأسطورة تعتمد عادة تقاليد العامة وأحاديثهم، وحكاياتهم، فتتخذ منها عنصرا أوليا ينمو مع الزمن بإضافات جديدة، حسب الرواة والبلدان، فتصبح بالأخيلة والأحداث والعقد..."⁶

والأسطورة كما هو معروف هي الوجه المناقض للتاريخ، لأنها تغوص في عوالم سحرية خرافية لا نهاية لها تحكمها قوانينها الخاصة، والفعل فيها لا يخضع لمبدأ السببية، ونجد أن الزمن الماضي هو أكثر الأزمنة التصاقا بالأسطورة.

إن الزمن الأسطوري زمن يتجرد من واقعيته، فيصبح أكثر اتساعا وخيالا، مرتبط بأحداث غرائبية مبتدعة، وهمية لا صلة لها بالتاريخ، كما أنه زمن تنعدم فيه الدلالة الزمنية لأنه لا يتعامل معه تعاملًا طبيعيًا. ومن خصائص هذا الزمن عند رولانا بارت: أنه ينحي عن الأشياء صفتها التاريخية ليجعل منها موجودات طبيعية لا تاريخ وراءها... فيتخلص ما فيها من بعد إنساني"⁷

الزمن الأسطوري هو زمن غير عادي، خارق، يتعامل مع أحداث وأمكنة وشخصيات ذات قدرات عجائبية خارقة ويحمل دلالات ورموز متعددة. هو زمن مطلق، قائم على الاستمرار، التواصل واللامحدودية.

وهذا أشار إليه مرتاض من خلال روايته في قوله: "وما وجد من زمانك الآن سيوجد في الماضي السحيق. أو أنه وجد في المستقبل البعيد، لا تدري حقا، لا تميز من دلالات الزمن الفاني"⁸

وقوله: "...فيم سيصلكم من أخبارهم في الزمن الماضي وفي ما وصلكم من أخبارهم في الزمن المستقبل...."⁹

لقد تعتمد مرتاض الخلط في دلالات الزمن، حيث استعمل الفعل الماضي ليدل به على المستقبل، والفعل المضارع ليدل به على الماضي وكان غرضه من وراء ذلك، الإشارة إلى مطلقية الزمن.

ب- الزمن النفسي:

⁶ _ جبور عبد النور : (مادة الأسطورة) المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص 19.

⁷ _ عبد الصمد زايد: مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، 1988 ص 17، نقلا عن :

R.Barthes : Mythologie , p230.

⁸ _ عبد الملك مرتاض: رواية "مرايا متشظية"، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000 ص 11.

⁹ _ المصدر السابق، ص 45.

هو ذلك الزمن الذي يتعلق بالذات، وما يعتزها من مشاعر وأحاسيس وتقلبات "...وهذا البعد الزمني مرتبط في الحقيقة بالشخصية لا بالزمن، حيث أن الذات أخذت محل الصدارة، فقد الزمن معناه الموضوعي وأصبح منسوجا في خيوط الحياة النفسية"¹⁰

يحقق الزمن النفسي حضوره من خلال الصراع القائم بين الذات وما يحيط بها من مؤثرات خارجية، مما يؤدي بها إلى الارتكاس محاولة منها للولوج إلى عالم تعبر من خلاله عن أفكارها وهواجسها، وتحقق فيه هويتها وذاتها. "الزمن النفسي يتعلق بالواقع الداخلي والمعاناة الفردية لشخصيات الرواية. هو زمن يحمل منطق الخاص. يعكس حركة استقبال الحس لعناصر الأشياء الخارجية ورد فعل الذات على ما يقع حولها، وتتميز اللغة المعبرة عن هذا الزمن بالشفافية والذاتية وغلبة الطابع العاطفي في تقييم الأشياء والعلاقات"¹¹

هو نوع من الزمن الذي لا يسير وفق المعايير الموضوعية التي تؤطر حركة الزمن المنطقي المتفق عليه، كما أنه خاضع لحالة الشخصية الداخلية. يستنبط وجوده من نسيج الشعور الداخلي للشخصية، يتقلب بتقلب مزاجها الخاص. "كما أنه [الزمن] المحرك الخفي لمشاعرنا الكيانية: الفرج، الحزن، القلق، الضجر، الهم، الطمأنينة، الانتظار.... الذي ليس حركة آلية تقيسها عقارب الساعة، بلا تيار حي تغيره دورة الفلك والتحويلات، المناخية، والذي لا يسير على وتيرة واحدة، بل تدور عجلته وفقا لإيقاع حياتنا الداخلية، فيتباطأ في فترات الضجر والانتظار ويتسارع في حالة الفرج، والأحداث المنتظرة...."¹²

الزمن النفسي هو بمثابة عرض لما يحدث داخل الشخصية ووعيها، تحت خضم الزمن المتغير، كما نجد تقاطعا في الأزمنة (الماضي، الحاضر، المستقبل) داخل الشخصية.

ويخرج المبدع في هذا الزمن من التسلسل إلى اللاتسلسل. والتقنية الموظفة فيه، هي تقنية الارتداد الزمني، والحوار الداخلي. ويساهم هذا الزمن في تحرر الشخصية من سلطة المبدع، ومن سلطة المكان والأشياء. وتصبح السلطة العالم الداخلي الذي تعيش فيه الشخصية. كما أنها تتحرر من ضمير الهو الذي يتحدث بدلا عنها، ليحل محله ضمير المتكلم "أنا".

يتجلى الزمن النفسي في رواية "مرايا متشظية"، من خلال الحوار الداخلي الذي أجرته الشخصيات مع ذاتها، مفصحة عن أفكارها وأحلامها التي ظلت تراودها في كل آونة كهاجس يطبق عن أنفاسه، آملة في ذلك الحوار الذي أجرته شخصية بني خضران مع ذاتها، وكان المثير لذلك هو وجوده في زنزانه لوحده، مما ولّد لديه أثرا حادا ووضعا متأزما، ينم عن الحزن، والأسى، والغربة، والوحدة، نتيجة المصير الذي آل إليه، حيث وجد نفسه أسير الجدران، مستأنسا مع الروائح الكريهة، لا يفرق بين ليله ونهاره، وكانت الظلمة هي الملونة لزنزانه. وهذا ماثلا في قوله: "وأنت الآن مقبر في غيابات الزنازن المنتنة. المظلمة الندية تشم روائح القاذورات ..."¹³

¹⁰ _ سيزا قاسم: بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1985، ص 52.

¹¹ _ عبد الحميد بورايو: منطق السرد، دراسات في القصة الجزائرية الحديثة ديوان المطبوعات الجامعية، 1994 ص 131-132.

¹² _ سمير الحاج شاهين: لحظة الأدبية، دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، ص5.

¹³ _ المصدر السابق، ص5.

والأمر نفسه مع شخصية عالية بنت منصور، حينما ندمت على ضيافتها لشيخ بني بيضان، الذي لم يراع حقها، فبعد أن وهبته كل ما كان يتمناه، ومنحته روح الشباب والصحة، فقد خائها وخيب ظنها فيه. "... وغريب أمر هذا العاق أبرأته من الكمه والبرص والعرج. أعدت له نضاره الشباب ... بعد كل هذا يتحول هذا الشيخ الضال إلى فحل شرس شبق..."¹⁴

ج- الزمن الماضي:

إن استحضار الزمن الماضي مرهون بالزمن الحاضر، وذلك استناداً لوجود مثير، أو التعرض إلى موقف أو حالة ما تدفعنا للعودة إلى هذا الماضي ومعايشته من خلال الذاكرة، التي تحمل أسرار الشخصية واهتماماتها، وآمالها المدفونة في أعماق الشخصية، "... فلا يمكن إحياء الماضي إلا بتقييده بموضوعية شعورية حاضرة بالضرورة..."¹⁵ وكانت تقنية الارتداد هي الوسيلة في جعل هذه الأسرار والاهتمامات تطفو على السطح للكشف عن هوية الشخصية الروائية، وبالتالي ندرك المبررات التي تجعلنا نفتتن بسلوكات الشخصية.

فلا وجود لأي حاضر دون ماضي يركز عليه، "... فالماضي هو في جوهره عاجز بطلت فائدته، واستنفد إمكانياته، وانحصر أثره في مدى انعكاسه على الحاضر، إنه نعش ثقيل نجره وراءنا، ولا نعرف كيف نتخلص منه، إنه من الجهة الأخرى لباب الزمان، الذي نغلقه وراءنا بنسبة ما نتقدم..."¹⁶

إن الزمن الماضي هو زمن مضى وانقضى، وترك وراءه آثاراً عالقة في الأذهان "الماضي كان مع الوجود من قبل، ولم يعد معه الآن. عاش ثم فجأة كف عن الحياة و انتهى"¹⁷

يتمثل الزمن الماضي في رواية "مرايا متشظية" من خلال قوله: "والناس في تلك الأرض الخصيبة لم يكونوا يزرعون، لم يكونوا يعملون شيئاً غير التنزه في أرجاء تلك الغابات. كانت أشجارها محملة بالفواكه اللذيذة كانت هي غذاءهم..."¹⁸. كان الراوي يتحدث ويحكي عن الأيام التي كانت تعيشها الروائي، قبل مجيء العفريت جرجر يس الذي عاث فساداً فيها. وقد تغيرت الحياة بعدما كان يسودها السلم، والأمان والطمأنينة، فأصبحت تعج بالفساد، والاعتقال، والظلم.

وتمثل كذلك من خلال الحوار الذي دار بين شيخ بني خضران، وشرشريس الجني الذي يسترجع ذكرياته مع دنانا، ومدى حبه وتعلقه الشديد بها على الرغم من زواجها من رجل آخر، "بت أراعيها من بعيد على وجه الدهر، حتى استوت امرأة عديمة المثال.... لقد بت أعائش جسمها وهو يتفتح إلى أن أصبح يانعا كالوردة النضرة...."¹⁹

د- الزمن الحاضر:

¹⁴ _ المصدر السابق، ص 142.

¹⁵ _ غاستون باشلار: جدلية الزمن، تر: خليل أحمد خليل، المطبوعات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1992، ص 47.

¹⁶ _ سمير الحاج شاهين: لحظة الأدبية، ص 74.

¹⁷ _ المصدر السابق: ص 6.

¹⁸ _ عبد الملك مرتاض: رواية "مرايا متشظية"، ص 5.

¹⁹ _ المصدر السابق: ص 236.

كلمة الحضور هي الوجود الملموس، وهي اللحظة الآنية التي نعيشها الآن، حيث أن الأحداث السردية تنكشف أمام العيان، ويمكننا أن نسميه الزمن الحي، لأن القارئ يتعرف على مجريات الأحداث وهي تنتال أمام ناظره كأنه شاهد عليها. "إن الآن الرئيسي في نظر جويس هو الحاضر الذي: ... يفترس الماضي ولا يعيش إلا لأنه يلد المستقبل.."²⁰

الزمن الحاضر ليس زمنا ثابتا، بل متجددا، فما كان حاضرا اليوم يصبح ماضيا بالأمس. والحاضر هو حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل. "...لذلك من المستحيل على الحاضر أن يكون مؤقتا. حاضر الآن وعما قليل ينتهي، ليس حاضرا بعد لكن عما قليل يصبح كذلك.

إن وهم الحاضر من هذا النوع القائم على افتراض بداية ونهاية مؤجلتين بداية: لم تحل بعد لكنها ستأتي وشيكا أي مؤجلة إلى حين. نهاية: لم تحصل بعد لكنها ستحدث قريبا أي مؤجلة إلى حين، وفي فترة التأجيل هذه بين النقطتين يكون الحاضر"²¹ لقد تجلى الزمن الحاضر في العديد من المواطن في رواية "مرايا متشظية" من ذلك :

"... ولكنك تسمع الآن بعض الصراخ الصباح الجلبة ... كما تسمع هنا. كما تشهد، أو تكاد تشهد في هذا الليل...."²²

فالحاضر هنا كان في لحظة سماع شيخ بني بيضان لصراخ منبعث من بين الأشجار، نتيجة مشادات وقعت بين اثنين مجهولي الهوية. وكل هذه الأحداث جرت أثناء الليل.

إن الحاضر يحمل بذور فنائه في أحشائه، فلا نكاد نعيش اللحظة حتى نجدها قد انتهت: "إن الحاضر هو أشبه بمائدة عامرة تبسطها لنا جنيات ساحرات لكنها ترفعها أمامنا قبل أن نتمكن من إصابة لقمة واحدة من صحافها الفاخرة"²³.

هـ- زمن المستقبل:

"هو زمن التوقعات، والتنبؤات، وصيغ التحذير، والتهديد حيث يتم الحديث عن ما سيقع أو يمكن أن يقع قبل حدوثه...."²⁴

زمن المستقبل زمن لم يقع بعد، هو زمن منتظر حدوثه يحمل أمانينا ورغباتنا. وعلى الرغم من أننا نعيش في الحاضر إلا أن نطمح ونتطلع إلى حياة أفضل مما نحن فيه في المستقبل نستعجل حضورها في حالة الفرح، ونستبطنه في حالة أن المستقبل يحمل معه أشياء لا نرغب في حدوثها. فالمستقبل هو الذي سيأتي بعد الوجود. ليس معه الآن لمنه سيبدأ معه بعد حين.²⁵ المستقبل عدم ووجود، فهو عدم لأنه لما يحن بعد، وهو وجود لأنه سيصبح حاضرا، وإذ ذاك لا يمكن نعتة بالمستقبل لأنه لم يعد كذلك .

²⁰ سمير الحاج شاهين: لحظة الأدبية، ص 33، نقلا عن: James Joyce :Dedlus (gallimard) ;1967,p281

²¹ المصدر السابق: ص 12.

²² عبد الملك مرتاض:رواية "مرايا متشظية"، ص 170.

²³ سمير الحاج شاهين: لحظة الأدبية، ص 56.

²⁴ عبد الحميد بورايو: منطق السرد (دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص 134.

²⁵ سمير الحاج شاهين: لحظة الأدبية، ص 6.

وفي الرواية هذه نجد المستقبل ماثلاً في قوله: "إذا جاء هذا الطوفان الذي وعدتم أو عدتم به، عجز عن إطفاء هذه النار المتأججة، ذات اللهب والأوار.... ستطغى النار ذات الوقود على طوفانكم الموعود.... ومن علامات ضعفه أنه يستطيع أن يغمر كل الأرض"²⁶

وهنا نجد منادي قبيلة بني بيزان يتنبأ بحدوث الطوفان الذي سيغرقهم جميعاً في آخر الزمان. ذلك فهو يحذرهم من هذا الأمر الرهيب.

ينقسم زمن الرواية عادة إلى قسمين: أزمة خارجية متمثلة في زمن الكتابة و زمن القراءة، وأزمة داخلية متمثلة في الفترة التاريخية التي تجري فيها الرواية، زمن المحكي... إلخ.

و- زمن القراءة:

فهو المتعلق بالقراءة ويختلف من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل، فكل عصر له معطياته الخاصة على مختلف الأصعدة: السياسية، الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، حيث تتفاعل فيما بينها لتحدث تأثيراً على الأفكار والمذاهب السائدة. زمن القراءة هو زمن حي، يتجدد مع كل مبادرة قرائية، فهو لم يبدأ إلا لحظة قراءة المتلقي للرواية المرغوب فيها، وذلك من خلال الحركة الدائمة والمستمرة لفعل القراءة.

ز- زمن الكتابة:

لقد ظهرت رواية "مرايا متشظية" في مرحلة متأزمة عاشتها الجزائر اتسمت بالعنف والإضراب. وقد كان مؤلفها شاهداً على مجريات أحداثها، ومعايشاً لها بوصفه أحد أفراد الشعب الجزائري، قبل أن يكون مبدعاً. فالرواية وليدة وضع اجتماعي، سياسي، اقتصادي، حيث سلط المبدع الضوء على فترة حرجية عاشتها الجزائر في فترة زمنية معينة.

خاتمة:

وعلى هذا الأساس يقتضي البناء الفني لأي عمل سردي مهما كان زماناً ومكاناً، إضافة إلى عناصر أخرى، ولا يمكن الفصل بينها وبين الزمان، إذ أن تطور الأحداث مشروط بوجود مكان وزمان في بنية أي نص سردي مهما كانت جنسيته.

²⁶ _ عبد الملك مرتاض: الرواية، ص 79.